(١٠)

عبد الله وإنسانه
ما كان الله وما كان بيانه
مع الموتى

حديث الجمعة

١٢ رجب ١٣٨٠ هـ - ٣٠ ديسمبر ١٩٦٠ م

وعد ووفَّى وتعهد فأوفى. قال وصدق. وعرَّف وفعل. جمع قديمه على جديده، وبشر قابله بقديمه في حاضره. حَيا ميتا، ومات حيًّا، وقام خلقا، وبُعث حقا. وظهر عبدا وبطُن ربا. وتجمع إنسانا، وظهر كتابا وبيانا، وانتشر نورا، ورؤى قبورا. وقام حقا، وتجدَّد خلقا. وتكلم مرسَلا وأَلهم مرسِلا، وشَرُف عبدا وتواضع ربا.

ظهر عيانا، وما دام إنسانا، فذكر خبرا، وأغفل أثرا، وتُوبع مأمورا وخولف آمرا، وما غاب بعد عيانه، وما كان غائبا قبل بيانه.

إنه عبد الله وإنسانه، ما كان الله، وما كان بيانه.

أول العابدين روحا وذاتا ومعنى.. أصل الملائكة والجنة والناس وأصل كل الأجناس.

هذا مَن عدَّدنا أسماءه، ولم نحفظ بيننا أبناءه، سفن نجاة وأبواب خلاص. هذا من عدَّدنا أسماءه، وما عدَّدنا بيننا ذاته وبناءه، وما جددنا فينا عينه وإناءه.. منعناه عنا مواعينه، وحرمناه علينا عين عيوننا، وأذن آذاننا، وقلب قلوبنا، وجديد قوالبنا، وروح انطلاقنا، ونور معرفتنا، ودوام حياتنا، وأسوة قيامنا إلى ما نحب، ووسيلة خلاصنا مما نكره.

عبدُ الله ورسوله. عبد الله ورسول عبد الله. عبد الله وظهور عبد الله. آدم الله وابن آدم الله. نور الله ومشكاة نور الله. كون الله وعالم الله. عبد الله ورب عوالم الله. عبد الله ورب عالِمِي الله. عبد الله ورب العالمين في الله. عبد الله ووجه غيب الله. عبد الله ورسول ذات الله. عبد الله ورسول

الأقدس من ذات الله. عبد الله ورسول ملأ الله. عبد الله وفرد الملأ الأعلى لله. عبد الله ورسول الملأ الأعلى إلى نفسه في ذات الله. عبد الله ورسول الأعظم من الملأ الأعلى كتابا وعبدا من عباد الله، يعرف الله ويتصفه، ويعرفه الله ويصفه. يرتضي الله ويرتضيه الله.

هذا الذي ذكرناه وما عرفناه، ونسبنا أنفسنا إليه أسوة لنا، وما جددناه، ووهمنا متابعته وما كناه، واعتقاده وما صرناه، ومعرفته وما تواصيناه، وحبه وما في قلوبنا جدَّدناه. والخلافة على دينه وما بقوالبنا أظهرناه، وهو المبعوث فينا بنور الله ما آمناه.

إن المعرفة في عبد الله هي معرفة في الله، وهي معرفة لنفس الإنسان من نفس الله، ولذات الإنسان من ذات الوجود لله، ولعقل الإنسان من نور حكمة الله، ولحياة الإنسان من روح الله.

لقد كان لنا ذلك كله في محمد فما حرصناه. ولكن محمدا الذي وهمنا متابعته وما شرفناه، ما تخلى عنا أبدا لا بروحه ولا بمعناه، ولا بيننا مبعوثا غاب يوما عن مبناه.

ها هو اليوم ينادي الدنيا إلى حوض رحمته. أما في بيئة قومه، فيقوم بحجاب علما على نفسه باسمه في مبناه، ويظهر بيننا بروحه من بيت معناه. ينادينا صوتَ الله ونداءَ الله: أن هلموا.. للحج إلى بيت الله...

يؤَذن فينا بالحج إلى بيته بيتا لله.. إلى معناه معنى في الله. يدعونا إلى سلامة الاعتقاد في الله، عقيدة نقية مُصفَّاة.. أن هلموا إلى قبلة الله واستقبلوا بيت الله، لعلكم تتطهرون، خلق الله وعباد الله.. يدعونا إلى السلم مع الله وإلى السلام مع أنفسنا في الله.

جمع الزمان في قيامنا على تباعده. دَرَّكنا إياه بسفور بيننا، بذات لمبناه، وروح لمعناه، يجتمع على ما جمعه الله، ويُفرق على ما فَرَقَه الله. يتواجد في بيته من كل قلب، باسمه سريعا لمن ناداه.. عيد غريبا على ما عرَّفه وأوحاه، وعلى ما بدأه من آدم مبناه وانتهاه إلى إنسان معناه، حقا وعبدا لله، وعلى ما يجدده اليوم فينا أبا سريعا في نجدته بعين قديمه من عين معناه.

نائم يطوف بغرفته من الكعبة جزيها، حرمها الأرض مسجدا له بروحه طواه، فطهره، وبنفسه فيها زكاه فأقام القواعد إعلاما عمن هداه فآواه، عند من وجده عين معناه في نفسه به مؤمنة فارتضاه. ما أعطيه فلأمته، ولمن دعا منها بدعوته، ولمن قام في ملته فحيا بشريعته، من رآه أمرا قيما فأقام نفسه في ساحته، وأقام حقه بيقينه في طاعته. نفسه زكَّاها وما دساها وأخرج من أرضها ماءها ومرعاها، وطورها عالما فأحياها.

ها هو بيننا رسول الله. ها هو فوقنا رسول الله. ها هو لنا رسول الله. ها هو من بعدنا يبقى رسول الله. حَيانا وما حَيينَاه. أحْيانا وما أحييناه. تجدد فينا وما تجددناه - إلا من رحم - وقليل من عباد الله من شكر، وقليل من خلق الله من عبد، وقليل ممن عبد من في نفسه عرفه فاتقاه، ومن في معيته عشقه فرآه. والأقل من وحَّده فكان ذا الجلال والإكرام من وجه معناه. قليل من خلقه من دخل في حصن لا إله إلا الله، وأقل منهم من شهده محمدا رسول الله.

عباد الله! اتقوا الله وارحموا أنفسكم في الله. ففيكم رحمة الله، وفيكم نور الله، وفيكم روح الله، وفيكم عالم الله، وفيكم ملكوت الله، وفيكم ناسوت الله.

بكل هذا جاءكم كتاب الله، وبكل هذا جاءتكم سنة رسول الله، وفي كل هذا قامت بينكم عترة الله، وعترة رسول الله من عباد الله، فما استقام على الجادة إلا النادر القليل، وما عرف الحوض إلا الفاقر العليل، من عرف علته فطلب الطبيب. ومن طلب الطبيب لم يمتنع عليه الدواء، ولم يحرم من الله الشفاء. إن الذي أمرض هو الذي أعفا، وهو الذي أظهر وأخفى، وهو الذي أمات وأحيا، وهو الذي أفنى وأبقى.. وهو الذي جَهَّل وعلم، وهو الذي أنار وأظلم، وهو الذي أوحى وكلم، وهو الذي أضل وهدى، وهو الذي أخرج المرعى فجعله غثاء أحوى.

يا أيها الناس:

احرصوا على مبناكم عالم الله، وآمنوا بمعناكم وجود الله، وبعقولكم رسول الله، وبضمائركم حكيما لله، وبأنفسكم مُخْتَبَر الله، وبزمانكم فرصة الله، تتعرضون فيها لرحمة الله، ولمنة الله، بزمان حَجَبَكُم عن الله اختبارا فيه ليعلم أيكم أحسن عملا، فيرد إلى إنسان الغيب والشهادة من أبوتكم، ليضع كلا منكم نفسه في موضعه بعد مرجعه، وقد شهده في يقظته ومضجعه، أنامه وأيقظه، أحياه نائما، وأنامه يقظا عاملا.

هذه هي دنياكم. وهذه هي أخراكم. من عرف دنياه أخراه لدنيا قديمه، ومن عرف في أخراه دنياه لمواصلة الحياة، عرف الحياة، وعرف البعث، وعرف الموت، وعرف القيامة، وعرف الندامة، وعرف الساعة، وعرف السلامة، وشهد العقاب، وقام الحساب.

ليس هناك ما هو غائب عن حاضركم فيما أوعدتم وفيما بلغتم ووعدتم.. ظاهرا لباطن.. ظاهرا تقوموه وباطنا تعلموه. اذكروا الله قرين ذكركم أنفسكم. واذكروا أنفسكم قرين ذكركم الله، حتى توحدوا الله وتشهدوه في مرآة قيامكم، مجلاه تؤمنون، ومجلاه تظهرون، ومجلاه ترجعون، إن كنتم حقيقة من المؤمنين وحقيقة من الموحدين. هذا ما جاء به الدين. وهذا ما يأتي به اليقين.

وها نحن اليوم مع من يدعون بالموتى من المؤمنين، نعيش في هذه الدار مغتربين، ونعد أنفسنا من الموتى لنكون من المؤمنين. وها نحن نشهد رسول الله حيا، إذ نحن أموات، ونقدر رسول الله ميتا إذ نحن أحياء. ها نحن مع الناس نشهده من الموتى، وها نحن في موتنا نشهده من الأحياء، بل وحياة الأحياء، ونشهده حقيقة رسول الله الذي لا يموت، وأنه يقينا وجه الله الذي لم يخلق، وأنه مدركا حصن لا إله إلا الله.

ها نحن هنا أول المؤمنين، ونطمع أن نكون به فيه له يوما أول العابدين، يوم يقوم فينا الدين، ويقوم بنا اليقين، إذ نحن ننتسب إليه اليوم كتاب دين، ونؤمن به لنا نور يقين، ونشهده عين الحق المبين، في موت عن الخلق، إلى حيث الحياة وحيث الحق، وحيث لا عبد ولا رب في رب العالمين، ولا خلق ولا خالق في الأحد الصمد، ولا قريب ولا بعيد في الموجود المطلق، ولا كبير ولا صغير في اللانهائي السرمد، ولا تقي ولا سعيد في الرحمن الرحيم.

هذا ما يأتينا به روح رسول الله، وهذا ما يظهر فينا به روح رسول الله، عاملا ما انقطع، جذوة من قدس الله، مشتعلة ما خمدت وما خبت وما قترت، وما عن طالب اختفت، أو على نائم يطوف بالكعبة امتنعت، يبعث يحدث الناس حي في قبره، ما قبر الناس نفوسهم في مقابره من أجدائهم، فماتوا عن موتهم في حياته، فانتشر في أرضهم بروحه فانشقت أرضهم عنه بنوره، وجدد بذاتهم ذاته، وأقام في صفاتهم صفاته. وهذا هو معنى لا إله إلا الله محمد رسول الله مبعوثا في الناس.

اللهم إنا بك في أنفسنا آمنا، وفي إنسانيتنا، وفي وجودنا من وجودك إليك تعارفنا. نشهد أن لا إله إلا أنت حيثما توجهنا، ونجتمع عليك لا إله إلا أنت كلما طلبنا، ونراك لا إله إلا أنت كلما استيقظنا، ومن سباتنا أفقنا.

اللهم إنا نشهد أنه لا إله لا أنت من وراء كل نفس محيط في ملئنا، ونشهد أنك فينا أرسلت لنا عبدا رسولا من أنفسنا، عرفناه فعرفناك، وآمناه فآمناك، وطلبناه فوجدناك.

اللهم إن لك ملأ أعلى، وذاتا أقدس أظهرتَ وظهرتَ وعلينا بها قمت، ولنا إليها ذهابا وعدت، اللهم بها فألحقنا، وإليها فوجهنا، وبها إليك فخذنا.

اللهم وحدنا في ملئنا، ووحدنا في الملأ الأعلى.

اللهم وجهنا إليك لا نهائيا في عقائدنا، لانهائيا في قلوبنا، لا نهائيا في ضمائرنا، لا نهائيا في نفوسنا، لانهائيا في عقولنا، لا نهائيا في مواجيدنا، لا نهائيا في وجودنا، لا نهائيا في معارجنا.

اللهم إنه لا إله إلا أنت فيك أقمنا وبوحدانيتك قمنا. فلا تجعل منا شريكا لك. ولا تجعل منا خصيما لك. في السلم أدخلنا وبالسلام سربلنا وبالسكينة أسعدنا. لا إله غيرك ولا معبود سواك.

أضواء على الطريق

- الله لا إله إلا هو الحي القيوم.
- غفرانك ربنا وإليك المصير.
- أقرب إليكم من حبل الوريد... معكم أين ما كنتم.